أإله مع الله ؟!

للأستاذ محمود شلبي

آفة هذا الإنسان أنه لا يستطيع أن يؤمن بما غاب عن حسه وعينيه .

وذلك هو سر الخلاف الطويل العريض العميق حول مشكلة الألوهية وحقيقتها .

وزاد المشكلة خلافاً وتخبيطاً أن الله نفسه يتعالى عن كل ما يمكن للإنسان أن يتصوره .

فالمشكلة إذاً ذات شقين :

شقها الأول أن الإنسان لا يعتقد إلا بالمحسوس .

والشق الثانى أن الله نفسه أعلى من أفكار ذلك الإنسان .

وكلما طوت البشرية جيلا من عمرها ، لم تزدد فى ذلك الأمى إلا خلافا ، ولم تزدد من الله إلا بعداً !! .

وكان الظن بالإنسانية أن تفرغ من تلك المشكلة ، وتنتهى من تلك الجولة ، وتفصل فى القضية فصل المتيقن العارف ، إلا أنها لم تفصل ، وذهبت تزيد الأمر خلافاً وتضيف إليه ظلمات .

ومن كان فى شك فى هذا ، فليتقهقر إلى الوراء ، يوم أن خلق الله آدم ، فلينظر هل اهتدت البشرية إلى الحق من تلك القضية يوماً ما ؟ .

اللهم لا ... وذلك هو محصول الإنسان فى ماضيه ! .

وسوف يبقى الإنسان هكذا حتى تنتهى قصة الإنسان ، وتفنى هذه الحياة .

فهو فى ماضيه لم يفصل فى القضية ، وهو فى مستقبله سوف لا يفصل كذلك فيها .

فمتى إذاً يفصل هذا الإنسان فى أكبر قضية حيوية من قضاياه ... متى ؟ .

وإن هناك أقواما غرتهم الأمانى ومضوا مع أوهامهم .. يظنون أن الإنسان واصل يوماً ما إلى حقيقة الله ! .

والحق أن المشكلة كانت وسوف تكون لأن ذات الله نفسها أصل فى كينونتها .

فلو أن الله شىء محدود بحدود ، أو مقيد بأبعاد ، أو يمكن إدراكه ، أو يستطاع رؤيته ، لما اختلف البشر فيه ، ولأجمعوا عليه ، ولأصبح بديهة لاتقبل شكا ولا يدخل إليها جحود .

ولكن الله غير هذا كله ، وفوق ظنون البشر ، ومخالف لكل تفكير .... فما يكون إذاً ؟ .

لا يكون إلا أن يكون هو الله ....

وتلك هى العظمة الإلهية صدقاً وعدلا .

فلو أن الله شىء يدركه البصر ، أو تلحظه العين ، أو تسمعه الأذن ، أو تلمسه اليد ، لكرهه الإنسان ، ولما استطاع أن يعظمه .

ولكن الله فوق ما ندرك ، وغير ما نتصور ، ومن هنا يأتى التعظيم والتقديس والإجلال والإكبار .

والإنسان هو المحجوب عن ربه ، وليس الله هو المحجوب عن خلقه .

فلا يستطيع شىء حجب الله ، ولكن الله هو الذى يحجب الخلق عن ذاته .

فالله ظاهر باد لخلقه ، ولكن الناس هم الذين لا يبصرون .

ولكن الإنسان ما زال يسأل : فأين إذاً الله ؟ .

ولم يسمع حتى الآن جواباً عن سؤاله ، إلا ما ألقته إليه الكتب السماوية ، على لسان رسلها .

إلا أن الإنسان المطبوع على الجدال والخصام ، ما كان ليقتنع بما تقصه عليه كتب السماء .

فذهب يماري ، ويجادل ، ويشكك ، ويبتدع ، أفكاراً من عنده عن الله ربه .

فإذا استقصيت ما أخرجه الإنسان من أفكار نحو الله ، وجدتها تدور في فكرتين اثنتين .

إما أنه ينكر أصلا وجود الله ، وهذا مايسمى بالنكر أى الإنكار التام لفكرة وجود إله .

وإما أنه يعترف بوجود الله ، ولكنه يشرك معه شيئاً آخر ، وهو ما يسمى بالشرك .

أما الذين كفروا ، فؤلاء أغبى الناس ، لأنهم أرادوا أن يستريحوا من عناء التفكير ، فذهبوا إلى التطويح بالموضوع من أساسه .

فاعلنوها ورفعوا عقائرهم بها ، وقالوا لا إله هناك ، إنما هى الطبيعة ، وإنما هو التطور وليس وراء هذا الكون من شيء ، إن هى إلا بطون تدفع ، وقبور تبلع ، ولا يهلكنا إلا الدهر !! .

وانخدعت البشرية أجيالا وأمماً بتلك الصيحة ، واستكانت أعقابها إليها ، لأنه أيسر الطرق إلى الراحة ، وأسهل الوسائل إلى الاستراحة .

فيكفى أن يزعم المُتْلُّ منهم أن لا إله هناك ، ثم ينطلق كالبهيم يفعل ما يشاء .

وأما الآخرون . . . أولئك المشركون . . . فهم يقرون بوجود الله ، إلا أنهم يتخذون معه إلهاً ، كأن الله وحده لا يكفيهم ، أو لا يستطيع أن يقوم بما يريدون ، فيجعلون معه إلهاً يعينه على أداء مهمته !! .

وهؤلاء وإن كانوا دون الكافرين فى الغباء ، إلا أنهم فى الجهل بالله على حد سواء .

فما الذين يعتقدون بإلهين اثنين ، بخير من الذين يعتقدون أنه لا وجود للإله أصلا .

من أجل ذلك أعلن الله حكمه الفاصل على رءوس الخلائق فقال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . . . » .

كيف يغفر الله لمن مات مشركا به ، وقد جاءه بشير عقيدة ، وهو بشركه يعلن عجز الله وحاجته إلى المعين ! .

ولأن ينكر الإنسان وجود الله ، خير من أن يجعل معه إلهاً آخر ؟ .

لأن الكافر ينكر ، ولكن المشرك يعترف ، ويجعل شيئاً يعينه .

وكلاهما غبي وجاهل .

وفريق المشركين فى هذه البشرية كثير وكثير . تجدهم دائماً فى كل زمان ومكان .

فمنهم من يجعل إلهه مع الله صنما .

ومنهم من يجعل ذلك الإله الثانى ملكا من الملائكة .

ومنهم من يجعله نبياً من الأنبياء .

ومنهم من يجعله ولياً من الأولياء .

ومنهم من يجعله هواه هو نفسه « واتخذ هواه » .

ومنهم ... ومنهم ... وكلهم جاهلون ضالون .

والحق من هذا كله أنه لا شريك هناك لله ، لأن الشريك لا بد أن يماثل شريكه وهذا باطل ، لأن الله ليس كمثله شيء .

فالذين كفروا والذين أشركوا سواء فى الجهل بالله .

لكن الذين آمنوا ، يؤمنون بالله ، منزها عن الشريك ، وعن المثيل ، وعن المعين ، وعن الولد ، وعن أى شيء .

هو عندهم ... الله الذى لا إله إلا هو ... وهو الذى ليس كمثله شيء وهو الذى تعالى عما يشركون علوا كبيرا ...

وذلك هو الحق من الإشكال ، وهو الحل لاختلاف الأيدى الذى فيه يشتجرون ؟.

الطريق الصوفى

• يقول سهل بن عبد الله التسترى . « أصولنا سبعة أشياء . التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق » .

• ويقول أبو أحمد القلانسى : بنيت أصول مذهبنا على ثلاث خصال : لا نطالب أحداً من الناس بواجب حقنا ، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس ، ونلزم أنفسنا التقصير فى جميع ما نأتيه » .

مسألة فى الذكر

• قال العلامة أبو نصر الطوسى : سمعت ابن سالم يقول : وسئل عن الذكر فقال : الذكر على ثلاث :

فذكر باللسان ، فذاك الحسنة بعشرة ، وذكر بالقلب ، فذاك الحسنة بسبعمائة ، وذكر لا يوزن ثوابه ، ولا يعد ، وهو الامتلاء من المحبة والحياء من قربه .

• وقيل لابن عطاء : ما يفعل الذكر بالسرائر ؟ فقال : ذكر الله تعالى إذا ورد على السرائر بإشراقه ، أزال البشرية فى الحقيقة برعوناتها .

• ويقول سهل بن عبد الله : ليس كل من ادعى الذكر فهو ذكر ، وحقيقة الذكر : هو تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك فتراه بقلبك قريباً منك ، وتستحى منه ثم تؤثره على نفسك وعلى أحوالك كلها .